مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

النزعة التشاؤمية في شعر ابن الرّومي

The pessimistic tendency in Ibn al-Rumi's poetry

نضال موسى مرزوق جقامة، الدراسات الادبية والنقدية، (الأردن)

khalidk_51@hotmail.com

تاريخ إرسال المقال: 2022/03/10 تاريخ قبول المقال: 13-05-2022

الملخص:

تتناول هذه الدراسة النزعة التّشاؤميّة في شعر ابن الرومي، وقد تطرّقت إلى حياة الشاعر الخاصّة، فضلا عن ظروف بيئته السّياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة التي تركت بصماتها عميقة في مضامين شعره المتنوّعة.

للوقوف على ذلك، ارتأينا اعتماد المنهج النفسي التحليلي لقدرته على الغوص في عمق المشاعر النفسية للشاعر وتحليلها وكشف بواعثها وتداعياتها...

كشفت الدراسة عن براعة ابن الرومي في التعبير عن رؤاه إلى الحياة بلغة شعرية بديعة جمعت الفنية والدلالية في آن معًا، تاركة بصمات واضحة للشاعر في مضمار الأدب الشعري التشاؤمي الصادق.

الكلمات المفتاحية: التشاؤم، الهجاء، ابن الرومي.

Abstract:

This study deals with the pessimistic tendency in Ibn Al-Roumi's poetry, and it touched on the poet's private life, as well as the circumstances of his political, social and religious environment, which left their deep imprints in the various contents of his poetry.

To analyze this, we decided to adopt the psychoanalytic method for its ability to delve into the depth of the poet's psychological feelings, analyze them and reveal their motives and repercussions...

The study revealed the ingenuity of Ibn Al-Roumi in expressing his visions of life in an exquisite poetic language that combined artistic and semantic at the same time, leaving clear indications for the poet in the field of sincere pessimistic poetic literature.

Keywords: Pessimism, satire, Ibn Al-Rumi.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

النزعة التشاؤمية في شعر ابن الرّومي

مقدمة:

يتجلّى التشاؤم بوصفه حالة شعوريّة لصيقة بشعر الشّاعر العباسي ابن الرومي[1]، كاشفةً نفسيّة رجل عايش تجربة حياتيّة صعبة، تركت في داخله صراعًا حادًا، إذ تحولت إلى إسقطات خارجية كان لها الدّور الفعّال في ملكته الشّعرية، وعليه أدّت مؤثرات محيطه دورًا مهمّا في بلورة تجربة الشاعر الفريدة؛ إذ منحته أدوات خاصة، ولغة تعبيريّة فريدة أكست شعره بُعدًا فكريًا ودلاليًا حلّق في فضاء الحزن والتشاؤم.

لكشف مختلف جوانب حياة الشّاعر، التي تُعدّ المعين الأساس لإبداعه الشّعري، اعتمدنا المنهج النّفسي... وقد" طوّر لاكان المنهج النّفسي بجمعه بين اللّسانية البنيويّة والفرويديّة، فعدّ أن للواعي بنية اللّغة نفسها؛ فالإنسان لا يعلم وهو يصنع الأشياء بالكلمات، المدى الذي تصنعه به الكلمات. وقد عدّ أنّ للواعي بنية تُؤثّر على أقوالنا وأفعالنا..."[2]، وفي المُقاربات النّفسيّة تُعدّ " أهم القراءات المعروفة القراءة الأعراضيّة، إذ إنّ الخطابات، على ما يرى فرويد، هي بمثابة أعراض، أي حل وسط بين الوعي واللاوعي؛ لذا تمكن قراءتها. وكذلك يمكن إنجاز قراءة إشاريّة، إذ يتم البحث عن تكرار ملحّ، وعن تنافر بين موضوع وعاطفة، وعن غرابة، وعن زلة لسان، وعن كلمة غير متوقّعة، وعن غياب وحضور مفاجئين.."[3]، ما يسمح بالكشف عن العقد النفسيّة التي كشفت عن نفسها بوساطة إبدالات تُعدّ رديفة للصّراعات النفسية المخبّأة.

ابن الرّومي شيء من السّيرة:

هو علي بن العباس بن جريح، ولد في بغداد عام 221 هـ، لأبٍ رومي وأمٍّ فارسية، كان جدّه مولى عبد الله بن عيسى بن أبي جعفر المنصور؛ فنشأ والده مسلمًا وهو كذلك وهو عباسي الولاء[4]. مات أبوه وهو صغير، فكفلته أمه وأخوه الكبير، تزوّج ورزق من الأولاد ثلاثة، مات أخوه وهو في الثلاثين من عمره، وماتت أمه بعده بمدّة، ومات أولاده وزوجه، فحزن عليهم حزنًا شديدًا ورثاهم بأفجع المراثي[5]، كما

---

(1) ابن الرومي، الشاعر العباسي، هو أبو الحسن علي بن جريح وقيل " جورجيوس"، ويعرف بابن الرومي نسبة إلى أصله. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1972م، ج1، ص 3500.

(2) نبيل أيوب، نص القارئ المختلف (2) وسيمائية الخطاب النقدي، بيروت: لبنان ناشرون، ط1، 2011م، ص 31 و32.

(3) المرجع نفسه، ص 37.

(4) انظر ترجمته في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دارصادر، ج3، ص 358. أبو اسحق الحصري القيرواني، زهرة الآداب وثمرة الألباب، بيروت: المكتبة العصرية،ج2، 2008م، ص 222. تاريخ الأدب العربي، كارل برو كلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط5، ج2، ص 45 و 46. العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، المكتبة التجارية الكبرى، ط5، 1963. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، دار المعارف، ط13، ص 200. شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط10، 1996م، ص 296.

(5) العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 92.

أن أمواله استنفذت واحترق بيته، وطفقت شياطين الغدر تتصدى له وتعترضه من كل جهة، فتراكمت أشلاء الفشل في نفسه حتى أصبحت نفسه كمقبرة[1].

ذكر ابن خلكان أنه توفي " يوم الأربعاء .. من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين، وقيل: أربع وثمانين، وقيل، أربع وتسعين، ودفن في مقبرة باب البستان"[2]، ويقول العقاد: "إن الذين جاؤوا بعد ابن خلكان تابعوه في هذا الشك الذي لا مسوغ له...، لأن ابن الرومي أثبت لنا أنه بلغ الستين وعاش إلى ما بعد سنة ثمانين[3]، إذ يقول:

طربت ولم تطرب على حين مطربِ وكيف التّصابي بابن ستين أشيبِ"[4]

وقيل إنّه مات مسمومًا؛ فالرواية التي أوردها ابن خلكان تقول: إنّ الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب وزير الإمام المعتضد، كان يخاف هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدسّ له السمّ في خشكنانجة، فلما أحسّ بالسم قام، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال: إلى الموضع الذي بعثتني إليه فقال له: سلم على والدي! فقال له: ما طريقي إلى النار. على أنّ العقاد يضعف هذه الرواية[5].

وما يعنينا هنا أنّه توفي وقد بلغ من العمر اثنين وستين عامًا " وقد أدرك تسع خلفاء أولهم المعتصم، وآخرهم المعتضد"[6].

المبحث الأول: التشاؤم لغة واصطلاحًا

ورد في القاموس أن الشؤم لغة هي ضدّ اليمن، والتطيّر معنىً ملازم للتشاؤم فيُقال: هو إنسان مُتطيّر بمعنى أنه متشائم. فالتطيّر لغةً تفاعل به ومنه تشاءم وأصله التفاؤل بالطير، ثم استعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم وفي التنزيل الكريم: "فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه"[7].

أنشد زهير قائلًا:

---

[1] إيليا الحاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 147.
[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، مرجع سابق، ص 361 .
[3] العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 268. بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار مارون عبّود، 1979م، ص 239.
[4] أبو الحسن علي بن العباس، ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصّار، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2003م، ج1، ص 174.
[5] انظر العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 270 و 271.
[6] بطرس البستاني، 239، محمد عبد الغني حسن، ابن الرومي، مصر: دار المعارف، 1960م، ص 5.
[7] القاموس المحيط، مادة (شأم)، البيت لزهير في ديوانه، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، بيروت: دارالمعرفة، ط2، 2005م، ص 70.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

فَتَنْتُج لكم غلمان أشأم كُلُّهُم كأحمر عادٍ، ثم تُرضع فتفطم[1]

المطلب الأول: التشاؤم بمجهر علم النفس

عُدّ التشاؤم، في علم النفس البشري، حالة نفسية لها آثارها في الحياة، ف" التشاؤم نزعة اعتباريّة في الذهن (ترى) رؤية كل شيء أسود قاتمًا، وأخذ الجانب السيّء من كل شيء" [2]، الأمر الذي يدفع المتشاؤم إلى التطيّر من بعض الأشياء المرئية أو المسموعة؛ كأن يتطيّر بأصحاب العاهات أو التطّير من سماع كلمة أو اسم معين، له ارتباط معين في ذهن المتشائم يؤثّر عليه سلبًا.

كما أنّ التشاؤم ليس حالة وقتيّة بل هو حالة مرضيّة نفسية ملازمة للشخص؛ وتركيزه يمتد على الجوانب السلبية للحياة: الألم، الفقدان، الإحباط، الصراع، الاستياء، المشكلات التي لا حلول لها.

والمتشائم شخص له قناعاته الشخصية التي تكونت نتيجة التأثر بعوامل اجتماعية وسياسية متعلقة بالبيئة التي نشأ فيها، فتكونت لديه سمات خاصة؛ هذه السمات تُحدث اضطرابات في النفس الإنسانية إذا استسلمت لها؛ ذلك أنّ أكثر ما يؤثر على سلوك الإنسان هو مشاعره وعواطفه، المتكوّنة من الدوافع المكتسبة للسلوك... ويترّتب على تكوينها وإعادة تشكيلها تعديل السلوك، وتنظيم الدوافع الفطرية، وتوجيهها جهات معينة مقيّدة بالبيئة المحيطة، ويُعد تكوينها من أهم أنواع ملائمة عقل الفرد للبيئة المحيطة به[3]؛ فإذا فإذا سيطر شعور سلبي على الإنسان أصبح مرضًا نفسيًا يحيط العقل بغشاوة مُظلّلة، وقد يُغيّر مجرى حياته؛ فيهوي به إلى القاع.

لذا لا بدّ من توازن الركائز الجسمية والنفسية والسلوكية العاطفية حتى يصل الإنسان إلى درجة التكيّف السليم بينه وبين مجتمعه. تاليًا، يستطيع مواجهة المواقف المتعددة في حياته؛ كي لا يُصاب بعقدة نفسية تسيطر عليه، تدفعه للتشاؤم من الحياة، وفي هذه الحال سيعتقد ".. بينه وبين نفسه أن الحياة وجود خاطئ لا عدل فيها ولا جمال، إنه مظهر للقباحة.. وبعدئذٍ يصبح الناس ملامح شتى من وجه الحياة القبيح"[4]، وقد عبّر المتنبي عن ذلك حين قال:

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجد مُرّاً به الماء الزلالا[5]

---

[1] لسان العرب، مادة (شأم).

[2] عبد اللطيف شرارة، تغلب على التشاؤم وسلطان الإرادة، الموسوعة النفسية، بيروت: دار إحياء العلوم، ط5، 1996م، ص 11.

[3] عبد العزيز الغوصي، أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1982م، ص 93.

[4] إيليا سليم الحاوي، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، 1959م، ص 45.

[5] المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، ديوان المتنبي، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1983م، ص141.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

هكذا، يرى كل ما أحاله قاتمًا تحيطه السّوداويّة؛ لأنه أقنع نفسه من الداخل بهذا السّواد.. فلا يرى الجوانب المشرقة في الحياة إلا ما ندر، وإن رآها فإنه على يقينٍ أنّها لن تدوم طويلًا؛ فيعيش هذه اللحظات الجميلة بمتعةٍ وفرحةٍ آنية سرعان ما تزول بزوالها.

لكن هل التشاؤم صفة دائمة ملازمة للإنسان أم هو مزاج عارض؟ يقول عفيف عبد الرحمن: " يوجد في أعماق كلٍّ منا زاوية حيث يعمل بها السّر النهائي للأشياء بحزنٍ وأسىً وأنّ هناك نفوسًا ليست بقادرة على السعادة إذ يبدو العالم لها كوكرٍ دائم الخوف أكثر منه ينبوعًا دائمًا للسعادة"[1].

إذًا، الشعور بالحزن والخوف من الآتي شعورٌ مستقر في داخل كلِّ واحد منّا إلاّ أنه متفاوت الدرجات والتأثيرات؛ فمرهفو الإحساس مثلا أكثر تأثرًا بهذه الخلجات النفسية، لأن صاحب المزاج الحساس يميل إلى الاعتقاد السّيّئ وسوء الظن في أمورٍ كثيرة، التي قد لا يكون لها أساس من الصّحة، فتمنعه من ممارسة حياته بأسلوب طبيعي، وتخطّي ما فيها من أزمات وهذا قد يؤدي به إلى الإحباط، وسرعان ما تضطرب حياته وتسودّ.

تترك البيئة تأثيرًا كبيرًا في نفسية الإنسان والصفات التي تكتسبها شخصيته؛ فالحالات النفسية المعقدة التي يعيشها المتشائم ترجع بالدرجة الأولى إلى ظروفه المحيطة به والتي تترك بصماتها في تكوينه النفسي والجسدي[2]، ومن بعض الصفات التي يكتسبها:

- ضعف الإرادة وانخفاض الهمة؛ فالمتشائم إنسان متردّد، عديم الثقة بنفسه، لأنه لا يتقبّل نفسه ولا مجتمعه وهذا يدفعه إلى الانطواء والعدوان.
- السّلبية والغيرة والحسد؛ إذ يرى أن الحياة لا جدوى منها، وأنها مجرد حظ، فيغار ممن ابتسم لهم الحظ ويحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، لإحساسه بأفضليته عليهم.

لذا يمكن القول: إن البيئة تترك شذرات مبثوثة في شخصية الفرد؛ تاليًا، فقد عاش ابن الرومي ظروفا حياتية صعبة، تركت لديه ندوبًا نفسية، عبّر عنها عن طريق أشعاره.. وهكذا يغدو الشعر لديه محاولة تفريغ لخلجات صدره وشعوره حيال المواقف التي مرّ بها والأزمات التي عصفت به وبزمانه، فتحول التشاؤم لديه إلى سلوك ملازم له، حتى غدا حالة ذهنية مرضية أصبحت لصيقةً به وبشعره.

---

[1] انظر عفيف عبد الرحمن، ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء، الرياض: دار العلوم، 1996م، ص 21.

[2] عبد اللطيف شرارة، تغلب على التشاؤم وسلطان الإرادة، مرجع سابق، ص 18.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

المطلب الثاني: بيئة الشاعر

عاش ابن الرومي في عصر يزخر بالعلوم والمعارف، وقد اختلف إلى حلقات العلم منذ صغره. فنال سهماً وافياً في اللغة والنحو، وعلوم القرآن، وبما أن عصره كان عصر الحركات الفكرية، فقد شهد الكثير من المناظرات والمساجلات بين الفرق والطوائف من المعتزلة وغيرهم... إذ أثرت فيه"، والعصر الذي عاش فيه كان صالحا لظهور ابن الرومي...الشاعر، لأنه كان عصرًا حافلًا بأشتات الحياة وألوان الإحسان، مشغولًا بالشعر والعلم وكل ما تشتغل به قريحةٌ أو سليقة"[1]، هذا بالإضافة إلى التنجيم الذي شاع في هذا القرن فأثّر في شعر ابن الرومي كما أثر في شعر غيره من شعراء القرنين الثالث والرابع الهجريين من أمثال أبي تمّام والبحتري[2].

يصف المعري ابن الرومي، ويقول بأنه " كان يتعاطى الفلسفة"[3]، وقد غلب على شعره طابع الجدل، "وكأن شعره شعر جدلي يقوم على المنافحة والنقاش والمعارضة، وهذه الأمور تكشف إلى أي حدّ انطبع ابن الرومي بطباع الفلاسفة والكلاميين، حتى غدت قصائده تسلك في تجسيد التجارب الشعرية، بين الاضطراد والتوضيح وتحقيق وجهات النظر"[4]، ولهذا طالت قصائده التي " تمتاز.. على طولها بقربها من وحدة الموضوع، فهي وإن تعدد أغراضها أحيانًا لا تخلو من الصلة المعنوية التي تربط أجزاءها بعضها ببعض"[5]. كما كان طويل النفس مجيدًا لاختراع المعاني، ويسترسل معها حتى يستوفيها إلى آخرها، ويبرزها تامة بأشكالها وألوانها. فبلغ طول قصائده مائتي بيت أو ثلاثمائة. وهذا الطول لم يُعهد في شاعر قبله[6]، يقول صاحب الفهرست: "لابن الرومي شعر كثير رواه عنه المسيّبي، ولم يكن مرتباً فعمله الصولي على الحروف"[7].

يراه ابن رشيق أولى الناس باسم شاعر؛ ويعلل ذلك بكثرة اختراعه، وحسن افتنانه في كل شعره[8]؛ شعره[8]؛ إذ يقول: "وأكثر المولدين اختراعًا وتوليدًا في ما يقول الحذّاق – أبو تمام وابن الرومي"[9]. وتوليد وتوليد المعاني ركيزة أساسية لدى الشاعر في نظر ابن رشيق؛ والذي يعرّف الشاعر بقوله: "وإنما سمي

---

(1) العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 59.

(2) المرجع نفسه، ص 201.

(3) أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، وضع حواشيه وقدم له علي حسن فاعور، بيروت: دار الكتب العلمية، 2007م، ص 223.

(4) إيليا سليم جاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 47.

(5) بطرس البستاني، الأدباء في الأعصر العباسية، مرجع سابق، ص 256 .

(6) المرجع نفسه، ص 255.

(7) ابن النديم، الفهرست، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2006م، ص 190.

(8) ابن رشيق، العمدة، ج2، مرجع سابق، ص 242.

(9) المرجع نفسه، ج1، ص 265.

الشاعر شاعرًا؛ لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره فإذا لم يكن لدى الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه...، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلاّ فضل الوزن"[1].

ولعلّ أكثر ميزة لفتت انتباه ابن رشيق في شعر ابن الرومي، قدرته على توليد المعاني وفي ذلك يقول: " كان ابن الرومي ضنينًا بالمعاني، حريصًا عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولّده، فلا يزال يقلبه ظهرًا لبطن، ويصرفه في كل وجه وإلى كل ناحية حتى يميته، ويعلم أنه لا مطمع منه لأحد"[2].

هذه الملكة البارزة التي تمتع بها ابن الرومي، تكشف عن سمتين في شخصيته :

أولاهما، يرى نفسه أفضل من غيره؛ إذ لديه قدرة تفوق الآخرين في نظم الشعر.

وثانيهما: شعوره بأن لا أحد يستحق أن يترك له المعنى ليولّد منه معانٍ أخرى؛ إذ حاول استنفاذ كل وجوه المعنى حتى لا يبقى لأحد فرصة للإفادة منه، وهذا الأمر ليس غريبًا على رجلٍ يتحلى بشخصيةٍ عبقرية مثل شخصية ابن الرومي.

وهكذا، نكون قد تحدثنا عن تأثير العصر من الناحية العلمية في صقل شعر ابن الرومي وعقله. أمّا من الناحية السياسية فقد كان عصر اضطرابات وفتن ومؤامرات فضلا عن توالي الخلفاء؛ فقد عاصر ابن الرومي تسع خلفاء – كما مر سابقًا – وفي هذا دليل على الاضطراب الذي شهده ذاك العصر.

أمّا من الناحية الاجتماعية، فقد كان عصر ابن الرومي منقسمًا إلى طبقتين: طبقة المترفين المتنعمين، وطبقة المعدمين الكادحين، وبحقّ " كان عصر ابن الرومي مزيجاً من الترف والبؤس والسعة والضيق والتديّن والتحلل والمروءات والخساسات بل كان عصر تقلبٍ وقسوة وجبن وقلة وفاء وفتن ودسائس"[3].

كان يرى الملذات بأمّ عينه لكنه لا يحصّلها، " حاول التكسّب بشعره فلم يفلح سهمه، وقلّت حظوته فما أتيح له أن يرضي ممدوحيه فيرضونه، فعاتبهم واستعتبهم، فما أجداه العتاب، ولا أُعطيَ العتبى، فسخط وهجا"[4]، وقلّت ثقته بالناس من حوله.

وكان هذا الأمر لصالحه فقد ساعدت هذه الظروف "على إنماء عبقريته ودفعها من اتجاهها الطبيعي، فصرفته خيبته لدى العظماء عن هدر عبقريته في مجال التقليد الهزيل وألجأته إلى النزول إلى

---

[1] المرجع نفسه، ج1، ص 116.
[2] ابن رشيق، العمدة، ج2، مرجع سابق، ص 238.
[3] محمد عبد الغني حسن، ابن الرومي، مرجع سابق، ص13.
[4] بطرس البستاني، الأدباء في الأعصر العباسية، مرجع سابق، ص243.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

أبعد قرارات شخصيته، كما أكسبت شعوره إرهافًا مضاعفًا"[1]، جعلته من الشعراء المبدعين، الذين تنطق أشعارهم حكما عدّة. إذ يقول ابن الرومي:

ومن يلق ما لقيتُ في كل مجتنىً من الشوك يزهد بالثمار الأطايب[2]

وابن الرومي يُعبّر، من هذا البيت، عن الهمّ والعناء اللذين يلاحقانه في كلّ محفل ما دفعه إلى الزّهد.

المبحث الثاني: التشاؤم في شعر ابن الرومي

"شغف ابن الرومي بالحياة، لكن الحياة لم تكن لتطالعه أبدًا بالإقبال والسعادة، فكانت المحن لا تنفكّ تنهال عليه، والحرمان ينهش قلبه، وكان تألمه من شقاء الحياة بقدر شغفه بها، فأسرف في التطيّر وملأ شعره بأنغام التشاؤم، فرأى أن حياة الإنسان سلسلة من النوائب والحرمان تصل بين مهده ولحده"[3].

يقول بشأن تولي الدّهر عنه:

إلى الله أشكو سخفَ دهري فإنّه يُعاتبني مذ كنت غيرَ مُطايبِ

أبى أن يُغيث الأرض حتى إذا ارتمت برحلي أتاها بالغيوث السواكب[4]

يشكو، هنا، ابن الرومي الزمان إلى الله عزّ وجلّ؛ مُشبّها زمانه برجل يعبث معه ولا يطيب له. فحتّى أن الدنيا لا تمطر على أرضٍ فيها رحله، إلّا إذا رحل عنها، فإن السماء تمطرها بمطر وابل.

لذا فهو مقتنع تمامًا بسوء طالعه، وأن الأبواب مسدودة في وجهه دائمًا:

وإن كان فتحُ باب من الله توقعت منه إغلاقَ باب[5]

فلو أنّ الله تعالى ساق باب الفرج إليه، فلا يغدو وأن يغلقه! وفي هذا تعبير عن شؤم قادم. لذا فهو على يقين بأنّ الحياة لو ابتسمت له برهة، فإنّ هذه السعادة لن تدوم له... وعلى الرغم من عدم حسنه بالظنّ فقد وصف إيليا الحاوي هذا البيت بأنّه " لا يعبّر عن عقيدة اليُمن والارتزاق"[6].

والتشاؤم ليس محصورًا في شعره فحسب، بل برز في كثير من مواقف حياته، إذ كان يتطيّر بالأشخاص أو المناظر. فقد روى صاحب زهر الآداب عنه هذه القصة: " قال علي بن إبراهيم كاتب مسروق البلخي: كنت بداري جالسًا فإذا حجارة سقطت بالقرب مني فبادرت هاربًا، وأمرت الغلام بالصعود

---

[1] حنا الفاعوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، بيروت: دار الجيل، ص 542.

[2] ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ص 213.

[3] حنا الفاعوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 548.

[4] ابن الرومي، الديوان، ج1، مصدر سابق، ص 214.

[5] المصدر نفسه، ج1، ص 281.

[6] إيليا سليم الحاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 87.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

إلى السطح والنظر إلى كلّ ناحية، من أين تأتينا الحجارة، فقال: امرأة من دار ابن الرومي الشاعر! قد تشوّفت، وقالت: اتقوا الله فينا، واسقونا جرّة ماء، وإلا هلكنا فقد مات من عندنا عطشًا. فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها، ففعلت وبادرت بالجرة وأتبعتها شيئًا من المأكول، ثم عادت إليّ فقالت: ذكرت المرأة أنّ الباب عليها مُقفل من ثلاثٍ بسبب طيرة ابن الرومي، وذلك أنّه يلبس ثيابه كلّ يوم، ويعوّذ، ثم يصير إلى الباب، والمفتاح معه، فيضع عينه على ثقبٍ في خشب الباب فتقع عينه على جارٍ له كان نازلاً بإزائه، وكان أحدب يقعد كلّ يوم على بابه، فإذا نظر رجع وخلع ثيابه، وقال: لا يفتحُ أحدٌ الباب"[1].

هذا من التطيّر المرئي، أما التّطير المسموع، فإنه يروى أنّ الأخفش الأصغر علي بن سليمان كان يقرع عليه الباب إذا أصبح، فإذا قال: "من القارع ؟ " قال: "مرة بن حنظلة" ونحو ذلك من الأسماء التي يتطيّر بذكرها، فيحبس نفسه في بيته ولا يخرج يومه أجمع"[2]، واستطاع بذلك الأخفش أن ينال منه كثيرًا، حتى تجرأ عليه الكثير من أهل بغداد فتندروا به، فهجاهم. يقول محمد عبد الغني حسن في كتابه ابن الرومي: "ولعل العابثين قصدوا من ذلك إثارته والعبث به وحبسه نفسه في بيته حتى يتجنبوا مطالع وجهه... فالطيرة هنا كانت شعورًا مشتركًا بينه وبينهم، هم يتطيرون منه وهو يتطير منهم"[3].

وهذا التصرف منهم ليس غريبًا؛ لأن النفس البشرية تنفر من الإنسان السوداوي الذي يبعث كل سواده ويثبط الناس ويكرههم في الحياة، وهكذا كان ابن الرومي يمثّل لهم إشارة سلبية.

ولمّا سئل عن سبب تطيّره، كان يحتجّ لذلك بأن الرسول كان يحبّ الفأل ويكره الطيرة، وأن عليًّا كان لا يغزو غزاةً والقمر في برج العقرب ويقول: " إنّ الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها"[4]. وفي حجته إشارة إلى علم التنجيم الذي كان سائدًا في عصره. أما عن قوله: الطيرة موجودة في الطّباع، فهو صحيح؛ لأنّ الإنسان بطبيعته يستبشر بالأمور الحسنة، ويمتعض أو يتضايق من الأمور السيئة، لكن الإنسان السوي لا يصل به الأمر إلى التشاؤم الدائم، كما هو الحال عند ابن الرومي، إذا أصبح التشاؤم لديه " آفة متأصلة غلبت على أقواله وأفعاله جميعًا فليس عنها محيص"[5].

---

[1] القيرواني، زهرة الآداب، ج2، مرجع سابق، ص 222.

[2] انظر بطرس البستاني، الأدباء في الأعصر العباسية، مرجع سابق، ص242.

[3] محمد عبد الغني حسن، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 270.

[4] القيرواني، زهر الآداب، ج 2، مرجع سابق، ص 222.

[5] العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص133.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

وهو مع تشاؤمه هذا يقرّ بأن التشاؤم والحذر لا ينجيان الإنسان من المكروه إذا حلّ به، ولا يستطيع الإنسان عندها إلا أن يُسلم للقدر ويوطن نفسه على الصبر لأن الدهر دائم التصرف وكثير النوائب، وفي هذا يقول:

ولما رأيت الدهر يؤذِن صرفه بتفريق ما بيني وبين الحبائب

رجعت إلى نفسي فوطنتها على ركوب جميل الصبر عند النوائب

ومن صحب الدنيا على جَور حكمها فأيامه محفوفة بالمصائب

فخذ خُلسةً من كلّ يومٍ يعيشه وكن حذراً من كامنات العواقب

ودع عنك ذكر الفأل والزّجر واطرح تطيُّر جارٍ أو تفاؤل صاحب[1]

أيّ أنّ الفأل والطيرة لا تدفعان عنك قدرًا محتومًا.

وهذا التّشاؤم بقي ملاصقًا به حتى وفاته؛ ففيما يرويه عنه ابن القارح في رسالته للمعري: إنّه علل سبب علته الأخيرة بمقامه الذي قام فيه، من قبل أن يدسّ له السم إذ قال: "أقصّ عليك قصّتي تستدلّ بها على حقيقة تلفي: أردت الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة، فشاورت صديقنا أبا الفضل وهو مشتق من الأفضال، فقال: إذا جئت القنطرة فخذ على يمينك وهو مشتق من اليمن واذهب إلى سكة النعيمة وهو مشتق من النعيم، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافية، فخالفته لتعسي ونحسي، فشاورت صديقنا جعفراً وهو مشتق من الجوع والفرار، فقال: إذا جئت القنطرة فخذ على شمالك وهو مشتق من الشؤم واسكن دار ابن قلابة، وهي هذه لا جرم، وقد انقلبت بيَ الدنيا، وأضرُّ ما عليّ العصافير في هذه السدرة تصيح: سيق سيق، فها أنا في السياق، ثم أنشد:

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك

تمتع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك[2]

هذه الحكاية – إن صحّت – كفيلة بأن تُبيّن لنا كيف كان ابن الرومي يُقلّب الأسماء رأساً على عقب، وبناءً على معانيها يتفاءل أو يتشاءم. حتّى صوت العصافير أوّله على أنه يسوقه إلى الدار الآخرة.

لذا، أجمع الدارسون لشخصية ابن الرومي على وجود اختلال واضطراب في شخصيته[3]؛ " فكان إذا مشى اختلج في مشيته، ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل، لاختلال أعصابه واضطراب

---

[1] ابن الرومي، الديوان، ج1، مصدر سابق، ص 352.

[2] المعري، رسالة الغفران، مرجع سابق، ص 21. وانظر بطرس البستاني، الأدباء في الأعصر العباسية، مرجع سابق، ص 242.

[3] العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 113.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

أعضائه"[1] وكان "دقيق الحسّ، عصبي المزاج، يشتد غضبه، ويسلط لسانه إذا عبث به عابث، لكنه سريع الرضى صفوح إذا استرضى"[2]، وهذا الاضطراب الداخلي لم ينتج عن الظروف المحيطة بابن الرومي فقط وإنما هو نابع من عدم شعوره بالثقة بنفسه، وعدم رضاه عن شكله وهيئته فضلًا عن عدم رضاه عن واقعه.

كما " كان ابن الرومي صغير الرأس مستديرًا أعلاه، يُخالط لونه شحوب في بعض الأحيان وتغيّر، ساهم النظرة، باديًا عليه وجوم وحيرة، وكان نحيلًا بيّن العصبية في نحوله، أقرب إلى الطول، كث اللحية أصلع، بادر إليه الصلع والشيب في شبابه وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه"[3]. وقد أثّر ظهور الشيب في رأسه باكرًا في نفسه فبكى شبابه:

لعمرك ما الحياة لكلِّ حيٍّ إذا فقد الشباب سوى عذاب

فقل لبنات دهري فلتصبني إذا ولّى بأسهمها الصيابِ

سقى عهد الشبيبةِ كلُّ غيثٍ أغرَّ مجلجلٍ صافي الرَّباب[4]

كما عدّ فقدان الشباب بمثابة الموت، إذ أنشد قائلًا:

يا شبابي وأين مني شبابي آذنتني حِبالُهُ بانقضابِ

دولةٌ يغمِرُ الزمانُ فتاها سَوَّمَتْ بالسواد سيما الشبابِ

لهف نفسي على نعيمي ولهوي تحت أفنانِهِ اللِّدانِ الرِّطابِ

ومُعَزٍّ عن الشباب مُؤسٍّ بمشيبِ اللِّدات والأترابِ

قلتُ لما انتحى يَعُدُّ أساهُ من مصابٍ شبابُهُ فمُصابِ

ليس تأسو كلومُ غيري كُلوم ما بِهِ ما بِهِ وما بيَ ما بي[5]

المطلب الأول: الخوف والتردّد لدى ابن الرومي

إن شدّة تشاؤمه أقعدته عن طلب الرزق والسعي في هذه الحياة، فكثيرًا ما دُعي إلى ممدوح، لكنه لم يذهب إليه مخافة السفر، وهذا ظاهر في شعره، إذ يقول:

أذاقتني الأسفار ما كرّه الغنى إليّ وأغراني برفضِ المطالبِ

فأصبحت في الإثراء أزهد زاهدٍ وإن كنت في الإثراء أرغب راغبِ

---

[1] بطرس البستاني، الأدباء في الأعصر العباسية، مرجع سابق، ص 241.

[2] العقاد، ابن الرومي، ج1، مرجع سابق، ص 112.

[3] ابن الرومي، الديوان، ج1، مصدر سابق، ص 256.

[4] المصدر نفسه، ج1، ص 256.

[5] المصدر نفسه، ج1، ص 234 و 235.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

حريصاً جباناً أشتهي ثم أنتهي بلحظي حَباب العيش لحظَ المراقبِ

ومن راح ذا فقرٍ وجبنٍ فإنه فقير أتاه الفقر من كلّ جانبِ

ومن نكبةٍ لاقيتها بعد نكبة رهبـ تُ اعتساف الأرض ذات المناكب[1]

وكأنه جرّب السّفر، لكن ما لقيه من عناءٍ منه كره السّفر إليه، ولو كان من أجل تحصيل المال ونيل المطالب فزهد في الإثراء بسبب خوفه، وهو في نفسه يريد الثراء لكن من دون عناء، جبنًا منه وحرصًا على سلامة نفسه وعدم إرهاقها، وهذا ما أقعده حقيقةً. وإلا فإن مشقّة السفر حاصلة – ولو فكّر كلّ الناس كما يفكّر لما تحرّك أحدٌ من مكانه، وهكذا اجتمع فيه و اجتمع عليه فقران: فقر المال وفقر النفس. ولهذا قيل: إنّ " ابن الرومي كان يعيش في أسطورة الرعب التي تغشى النفس بالقنوط والعتمة والفناء"[2]. وأكثر ما كان يخشاه في السفر الماء، و" اشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أدقع ودعاه إلى ركوبه من يمنونه الإرفاد وحسن الضيافة، وصوّر ما يعتريه من خوف الماء تصويرًا لا يدلّ إلا على حالة مرضية"[3]، إذ يقول:

ولو ثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير ثائب

أظلّ إذا هزّته ريحٌ ولألأت له الشمس أمواجاً طوال الغوارب

كأني أرى فيهن فرسان وبهمةٌ يليحون نحوي بالسيوف القواضب[4]

والماء الذي يصفه هنا هو ماء دجلة لا ماء البحر ولا ماء المحيط، وحتّى لا نظلم الرجل نذكر إنه سافر وجرّب السفر فلم يرتح ويسعد به فكرهه، وهذا ما دل عليه شعره السابق، لأنه لو لم يجرب لما وصف حاله في أثناء السفر، ونورد شاهدًا عن وصفه لخانٍ نزل به في بعض أسفاره، إذ لم يستطع النوم حينها:

فلم ألق فيه مستراحاً لمتعبٍ ولا نُزُلاً أيّان ذاك لساغبِ

فما زلت في خوفٍ وجوعٍ ووحشةٍ ومن سهرٍ يستغرق الليل واصبِ[5]

إن أبرز ما يلحّ على ابن الرومي هو الخوف، الخوف من كلّ شيء: من الجوع، ومن الفقر، ومن الظلم، ومن النكبات..، "وكلّ ذلك من آثار حياته التي عاشها، فهي حياة بائسة في أكثر جوانبها، حياة لا تعرف البهجة والتأنّق في المعاش"[6]، لذلك فإنه دائمًا يتوقع الأسوأ وينتظر النكبات:

---

[1] المصدر نفسه، ج1، ص213.

[2] إيليا الحاوي، ابن الرومي، ج1، مرجع سابق، ص 168.

[3] العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص133 .

[4] ابن الرومي، الديوان، ج1، مصدر سابق، ص 216.

[5] المصدر نفسه، ج1، ص215.

[6] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، مرجع سابق، ص 204.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

وللنفس أحوال تظلُّ كأنها تشاهدُ فيها كل غيبٍ سيُشهدُ[1]

كما تولّدت لديه حالة حذر واتقاء الخطوب، ويقول في ذلك:

وآمَنُ ما يكون المرء يومًا إذا لبس الحِذارَ من الخُطوبِ[2]

عبّر ابن الرومي، في أشعاره، عن خوفه من زوال العيش والنعمة، إذ يقول:

وجرَّبتُ حتى ما أرى الدهرَ مُغرِباً عليّ بشيءٍ لم يقعْ في تجاربي

أرى المرءَ مذ يلقى الترابَ بوجهِهِ إلى أن يُوارَى فيه رهن النوائبِ

ولو لم يُصَبْ إلّا بشرخِ شبابِهِ لكان قد استوفى جميعَ المصائبِ[3]

أبدى ابن الرومي توجّسه من الموت، ما ولّد لديه حالة من السوداوية والتشاؤم، وفي ذلك يقول:

فيا آملاً أن يَخْلُدَ الدَّهرَ كُلَّهُ سلِ الدهرَ عن عادٍ وعن أختها إرمْ

يُخَبِّرك أنَّ الموتَ رَسْمٌ مؤبَّدٌ ولن تعدو الرسمَ القديم الذي رسَمْ

رأيتُ طويلَ العُمْرِ مثلَ قصيرِهِ إذا كان مُفْضاه إلى غايةٍ تُؤمْ

وما طولُ عمر لا أبا لك ينقضي وما خيرُ عيشٍ قصرُ وجدانه العدمْ

ألا كلُّ حيٍّ ما خلا الله ميّت وإن زعمَ التأميلَ ذو الإفك ما زعمْ

يروحُ ويغدو الشيء يُبنَى فرب جنى وهْيَهُ الباني وإن أُغْفِلَ انهدمْ[4]

المطلب الثاني: التشاؤم وليد الفقد

كان اعتقاد ابن الرومي أن لا أحد يحلّ محلّ أحد ولا يكون في شيء موجود عوضٌ عن شيء مفقود، يقول في رثاء بعض ولده:

لكل مكان لا يُسدُّ اختلاله مكان أخيه في جَزوع ولا جَلد

أولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البيّن الفقدِ

هل العين بعد السمع تكفي مكانه أم السمع بعد العين يهد كما تهدي[5]

---

[1] ابن الرومي، الديوان، ج3، مصدر سابق، ص 587.

[2] المصدر نفسه، ج1، ص 199.

[3] المصدر نفسه، ج1، ص 217 .

[4] المصدر نفسه، ج6، ص 2302.

[5] المصدر نفسه، ج2، 625 و 626.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

لذلك لم يجد له سلوانًا في الحياة يعوّضه شعور الفقد والخسران.

تولّدت لدى ابن الرومي، حالة حزن وشقاء بعد خسارته ابنه، وصار يتمنّى الموت، لأن السعادة انعدمت بعد رحيله، وقد أنشد يقول بعد رحيله:

وإنِّي وإن مُتِّعْتُ بابْنيَّ بَعْده ... لَذاكرُه ما حنَّتِ النِّيبُ في نَجْدِ

وأولادُنا مثْلُ الجَوارح أيُّها ... فقدْناه كان الفاجِعَ البَيِّنَ الفقدِ

لكلِّ مكانٌ لا يَسُدُّ اخْتلالَهُ ... مكانُ أخيه في جَزُوعٍ ولا جَلدِ

هَلِ العَيْنُ بَعْدَ السَّمْع تكْفِي مكانهُ ... أم السَّمْعُ بَعْد العيْنِ يَهْدِي كما تَهْدي

لَعَمْرِي لقد حالَتْ بيَ الحالُ بَعْدَهُ ... فَيَا لَيتَ شِعْرِي كيف حالَتْ به بَعْدِي

ثَكِلتُ سُرُوري كُلَّه إذْ ثَكلتُهُ ... وأصبحتُ في لذَّاتِ عيْشي أَخَا زُهْدِ[1]

لقد شكّل رحيل ابنه صدمة نفسيّة كبيرة لدى الشاعر؛ إذ فُجع بخسارته، لاسيما أنّ المرض لم يمهله طويلا، فخطفه بعد صراع قصير معه، وهكذا غدت نفسه بحارا من الحزن والأسى واللوعة، وقد أبدع في وصفها بكلمات باكية مؤثرة، جاءت تعبيرا صادقا عن أحزانه وعزائه وانكساره.

رؤيته إلى واقعه

رأى ابن الرومي أنّ الشر بين الناس شامل مشترك، أما الخير فطارئ غير مشترك، وأن اللؤم موثق بالطبع البشري، فلا بد إذًا من الحذر واستثارة الحزم، كان يرى أن الأحياء هم الذين يفسدون هذه الحياة لأنهم دائمًا يسعون لملء الجانب الجسدي على حساب الجانب الروحي، ويفعلون أيّ شيء من أجل مصالحهم متناسين أرواحهم التي أثقلها الخبث واللؤم، وفي هذا يقول:

النفس خيرك إنّها علوية ... والجسم شرك ليس فيه تماري

فانفذ لخيرك لا لشرك واتّبع ... أولاهما بالقادر الغفار[2]

رأى ابن الرومي تهالك النّاس على الحياة، والأدهى أنه رأى أناسًا لا يستحقون، يصلون إلى ما يريدون وهو على حاله:

أيلتمس الناس الغنى فيصيبهم ... وألتمس القوت الطفيف فيلتوي؟[3]

سخط ابن الرومي من هذا الحال، بشعوره بأنه يفوق غيره، ولا يحصّل ما حصلوه، فعاب هذا الزمان لشعوره بالغربة بين أناس يصلون إلى ما يريدون من طريق الاحتيال والتملق:

---

[1] المصدر نفسه، ج2، ص624و626.

[2] المصدر نفسه، ج3، ص 1028.

[3] المصدر نفسه، ج6، ص 2625 .

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

ورجالٍ تغلّبوا بزمانٍ أنا فيهم ذو اغتراب

غلبوني به على كلّ حظٍ غير حظٍ يفوق كلَّ اغتصاب[1]

إنّه يرى المُتنعّمين ليس لهم فضائل أو جدارة من دونه؛ إذ يرى حقّه واستحقاقه مغصوبين، وأنه يضيع عمره سدىً[2].

والأمر أن ابن الرومي لو أتيحت له الفرصة لفعل فعلهم، إذ إنّه يحب الحياة ويتهالك على ملذاتها؛ فقد مدح الكثير من الوزراء وأصحاب النفوذ في عصره لكنهم تجنبوه لأنهم إذا لم يغدقوا عليه العطاء كان يهجوهم، وكان كثير الإلحاح في طلب العطاء لذلك زهدوا فيه وفي شعره، من مثل ما جرى بينه وبين القاسم بن عبيد الله بن وهب[3]، وهو ما انتهى بقتله.

وكان لا يعترف بفظاظة روحه أو ضيق خلقه أو حدّة مزاجه، إذ كان يعدّ نفسه الأجدر والأفضل وهم الأدنى، وقد شبّه حاله وحالهم:

رأيت الدهر يرفع كل وغدٍ ويخفض كل ذي شيم شريفة

كمثل البحر يغرق فيه حيٌّ ولا ينفكّ تطفو فيه جيفة

أو الميزان يخفض كل وافٍ ويرفع كل ذي زنةٍ خفيفة[4]

ولم يستطع التوافق مع البحتري فهجاه[5]، لأنّه كان يرى نفسه أفضل منه، وقد أيّده بروكلمان[6] في هذا الشّعور وفضله على البحتري في كتابه تاريخ الأدب العربي، إذ قال: " ابن الرومي على حق حين يأبى لنفسه أن يفضّل عليه البحتري وهو قليل التنوّع في شعره وقاصر عليه فن واحد من فنون الشعر وهو صناعة المديح"[7].

تمنّى ابن الرومي زوال النعم عن أصحابها، وحسدهم على ما أوتوا من فضل ونعمة إذ يقول:

لا تلومنّ حاسداً ألم النفـ س من البخس يا أُخيّ شديد[8]

وقد بيّن أن الحقد موجود كما الشكر موجود في النفس البشرية، وقد أنشد قائلا:

شكري عتيد وكذاك حقدي للخير والشر مكانٌ عندي[9]

---

[1] ابن الرومي، الديوان، ج1، مصدر سابق، ص 280.

[2] إيليا الحاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 80.

[3] انظر شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مرجع سابق، ص 310 و 311.

[4] ابن الرومي، الديوان، ج4، مصدر سابق، ص 1592 .

[5] انظر محمد عبد الغني حسن 69، العمدة ابن رشيق القيرواني، ج1، مرجع سابق، ص 110.

[6] مستشرق ألماني.

[7] كارل بروكلمان، تاريخ الأدب، ج2، مرجع سابق، ص 45.

[8] ابن الرومي، الديوان، ج2، مصدر سابق، ص 675 .

[9] المصدر نفسه، ج2، ص 793 .

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

يقول العقاد: " فابن الرومي قد شهد على نفسه بالحقد"[1]، ويعللّ ذلك بأنّ الرجل كان يدّعي الحقد الحقد ليخيف الذين يستوطئون جانبه، ويستسهلون إرضاءه بعد إغضابه [2].

والحقيقة أنّ "من يقرأ شعر ابن الرومي يرى أنّه أشد ذوي الفنون عجزًا عن حبس بعض ما يجول في خاطره من الخواطر وهذا العجز يجعل صاحبه كأنه أسوأ خُلقًا ونفسًا من النّاس"[3]. لكن ابن الرومي في الحقيقة كره معاشرة النّاس وحاول إبعاد نفسه عنهم او إبعادهم عنه لأنّه شعر بالخذلان منهم، وهم الذين ما فتؤوا يوقظونه إلى عوراته ونقصه، كلّما أسرفوا في هزئهم به وسخريتهم منه، فقام يهجوهم ويشنّع عليهم[4]، "ومن هنا نشأت فيه روح العدوانية التي لا تفهم بالتكيّف الاجتماعي معنى يُحترم، لذا فقد ابن الرومي الصلة بينه وبين مجتمعه وواقعه، وتميّزت رؤيته بالتشاؤم والعدوانيّة والغرور تجاه ما عرفهم.

وعلى الرغم من سخطه على أهل زمانه، وخصوصًا الخلفاء، إلا أنه كان يأسف لحالهم ويهمه شأنهم فهو لم يخلُ من الإنسانية وإن فقد ثقته بهم، وخير ما يدلّ على ذلك تفجعّه على ما حلّ بالبصرة في ثورة الزّنج سنة (228هـ)، فوصف ما حلّ بالناس في هذه الثورة، وتفجّع على البصرة بقصيدته التي يرثيها بها التي مطلعها:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام[5]

إذ يستحيل أن يتخلى الإنسان مهما بلغ من التشاؤم عن إنسانيّته، ولن يستطيع الانسلاخ عن بيئته وواقعه، لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها.

المطلب الثالث: الهجاء لدى ابن الرومي وسيلة تفريغ

لعل الهجاء وجه من وجوه تفريغ تشاؤمه من الناس، فقد " أطلق لنفسه العنان في الهجاء وخلع الحياء، وأتى بأشدّ مما جاء به غيره، فلا الحطيئة ولا الأخطل ولا جرير يدانيه في الهجاء"[6]، إذ لم يتورع يتورع عن نعت من يهجوه بأبشع الأوصاف[7].

ومن قصائده في الهجاء قصيدة يهجو فيها أحدهم يقول:

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طولُ

مقابح الكلب فيك طُرًّا يزول عنها ولا تزولُ

---

(1) العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 158.

(2) مرجع سابق نفسه، ص 159.

(3) عبد الرحمن شكري، دراسات في الشعر العربي، مصر: الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1994م، ص 89.

(4) انظر إيليا حاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 44.

(5) ابن الرومي، الديوان، ج6، مصدر سابق، 2377.

(6) عبد الرحمن شكري، دراسات في الشعر العربي، مرجع سابق، ص 85.

(7) انظر هجاءه لصاحب اللجنة الطويلة، شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، مرجع سابق، ص 316 و 317.

وفيه أشياءٌ صالحاتٌ حماكها الله والرسول
فالكلب وافٍ ومنك غدرٌ ففيك عن قدره سفولُ
وقد يحامي عن المواشي وما تحامى ولا تصولُ
وأنت من أهل بيت سوءٍ قصّتهم قصةٌ تطول
وجوههم للورى عظاتٌ لكنّ أقفاءهم طبول[1]

وهو " لا يكتفي بتحقير الإنسان في مقارنته بالكلب بل يسرف في ذلك حتى ينحطّ بالإنسان دونه"[2]، يقول إيليا الحاوي في تحليل هذه القصيدة: "وهذه الظاهرة تدل على انحطاط هائل في أخلاق ابن الرومي، وكفر بالقيم الإنسانية وتنكّر لها، ذلك أنّ ابن الرومي كان يعيش في موبقة من نفسه التي تحفل بالأحقاد والشتائم واللعنات"[3].

ويقول عنه عبد الرحمن شكري: " ينتشي بالهجاء ويعربد كل عربدة، ويطلق لنفسه العنان"[4]، ونكتفي بهذين الوصفين لهجاء ابن الرومي الذي بلغ مبلغًا كبيرًا.

وغالباً ما يتسم هجاؤه بالسخرية – وهي سمة عامّة في شعره – وفي هذا يقول العقاد: " فقد اجتمع لابن الرومي إذن ما لم يجتمع لأحدٍ في عصره"[5]. وهو في وصفه لمعلم صبيان، مغنٍ يقول:

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناءٍ ولا تعليم صبيان
له إذا جاوب الطنبور محتفلاً ضرب بمصر وصوت في خراسان
عواء كلب على أوتار مندفة في قبح قرد وفي استكبار هامان
وتحسب العين فكّيه إذا اختلفا عند التنغم فكيّ بغلِ طحّان[6]

ويطول الكلام في هذا الموضوع، لكن ما نستطيع قوله: " إنّ جرأته في نَبذ الأخلاق – التعرّض لها، تغدو خوفًا وتهالكًا في التصدي للحياة والعيش فيها. فهو يجبن أمام الحياة ويتنمّر أمام الرذائل"[7]، ويُعدّ هذا التنمّر في الرذائل محاولةً لإرضاء اختلاله وعدم ثقته بنفسه وتغطيةً على الخوف الذي يعتريه من الدهر وصروفه، وبالأحرى امتدادًا لاسوداد نفسه، إذ يتسلط على الناس ليظهر جمالهم قبحًا.

---

(1) ابن الرومي، الديوان، ج4، مصدر سابق، ص 2003 .
(2) إيليا الحاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 46.
(3) المرجع نفسه، ص 46.
(4) عبد الرحمن شكري، دراسات في الشعر العربي، مرجع سابق، ص 84. وقد علل شدته بالهجاء لأنه مرهف الحسّ إذا جوفي أو غُبن أو أُسيء إليه واضطهد، انظر المرجع نفسه ص 80.
(5) العقاد، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 139. وانظر إيليا حاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 545.
(6) ابن الرومي، الديوان، مصدر سابق، ص 625 و 626.
(7) إيليا الحاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 146.

مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية ISSN 2661-7633 / EISSN 2716-8883

السنة: 2022 المجلد: 05 العدد: 01 ص.ص: 506-526

كما كان لا يتحمّل الناس وطباعهم، ويبحث عمن يبقى له صافيًا على طول الزمن وهذا محال، لذلك اعتزل الأصحاب كما اعتزل الأعداء، وغمر روحه بالسواد:

ذقت الطعوم فما التذذت براحةٍ من صحبة الأخيار والأشرار
أما الصديق فلا أحبّ لقاءه حذر القلى وكراهة الأعوار
وأرى العدو قذى فاكره قربه فهجرت هذا الخلق من إعذار
أرني صديقاً لا ينوء بسقطةٍ من عيبه في قدر صدر نهار
أرني الذي عاشرته فوجدته متغاضياً لك عن أقلّ عثار
من جور إخوان الصفاء سرورهم بتفاضل الأحوال والأخطار
أأحبّ قوماً لم يحبوا ربهم إلا لفردوس لديه ونار؟ [1]

الفرع الأول: فلسفته وإيمانه

يسوق ابن الرّومي الحجج على اعتزاله النّاس، الصّديق منهم والعدو بأسلوب فلسفي مُقنّع – ولعلّ هذا الأسلوب هو الذي جعل أبو العلاء يذكر أنّه يتعاطى الفلسفة؛ لكنّ ابن الرومي" ليس فيلسوفًا ذا مذهب خاص إنّما هو رجل تأمّل وتحليل، وقد طوى شعره على طائفة جمة من الآراء بتبوّئه في عالم الأفكار مقامًا مرموقًا، وليست هذه الفلسفة دائمًا نتيجة تفكير متبصّر، إنّما هي أحيانًا ثمرة إحساس مرهف مُتقلب"[2].

وجد ابن الرومي، من تجربته وإحساسه العميق، أنّ البشر أنكروا نعم الله، ولم يعبدوه إلّا طمعًا بدخول جنّته وتجنّب ناره، وهو المنعم عليهم، فكيف سيصفو حبّهم لعبدٍ حاله حالهم؟!

ولو أنّ ابن الرومي تعزّى بالله وتحلّى بالإيمان لما وصل إلى هذا الحدّ من التّشاؤم، لكن الاضطرابات النّفسية التي عاشها حالت من دون ذلك، لذا سخط على القدر الذي هو من عند الله، " فالناس والحياة والله هؤلاء جميعًا لم ينتشلوه من هاوية نفسه، وإذا به يجد نفسه فجأةً في الفراغ لا تلهيه سعادة عن واقع الأرض ولا يُعزيه إيمان بإله السماء"[3].

وقد تبنّى ابن الرومي مذهب المعتزلة، فقد ورد عنه قوله:

أأرفِض الاعتزَال رأياً كلّا لَهنِّي به ضنينُ[4]

---

[1] ابن الرومي، الديوان، ج1، مصدر سابق، ص214.
[2] حنا فاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 547.
[3] إيليا حاوي، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 32.
[4] ابن الرومي، الديوان، ج6، مصدر سابق، ص 2491.

الفرع الثاني: الطبيعة ملاذ الهروب من الشّقاء النفسي

لكن ابن الرومي إنسان بطبيعة الحال، لذا فقد حاول التسلية عن نفسه وإيجاد مخرج له من هذا السواد، " فإذا هو يرتمي بأحضان الطبيعة، يتعوّض بالطبيعة المحبة الكريمة عن الإنسان الأناني الماكر المفترس"[1].

فأسهب في وصف الطبيعة، لا بوصفها شيئًا مستقلًا منفصلًا، بل بوصفها منقذة للرّوح، لذا أسقط على هذا الوصف ما يعتمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس.. فصوّرها بأسلوب فنيّ يفوق فيه الرسام أو النقّاش[2]، إذ أخرج معالمها حيّةً نابضةً تلمس هذه الصورة الحركية، وكأنها لوحة نابضة أو مجسم يتحرك.

يقول في وصف الرياض:

ورياضٍ تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة في الأبراد
منظرٌ معجبٌ، تحيّةٌ أنفٍ ريحها ريحُ طيب الأولاد[3]

وهو بعاطفة الأبوّة القويّة التي حُرم منها يُشبّه ريح هذه الرّياض بريح أولاده الطّيبة، وأجاد تشخيص منظر الرياض وكأنّها تتحرّك من الحسن، وقد اشتهر ابن الرومي بهذا الإبداع في الوصف والتشخيص، لذا فقد وجد في الطبيعة تسلية عن آلامه التي سببّتها له مصائب الدهر.

الخاتمة:

الحقّ أن ابن الرومي مدينٌ بعبقريّته لجنونه وشقائه وخيبته، فلو لم ينبذه النّاس، وينكروا عليه فضله وذكائه، ولو لم يخفق ويتعس ويتألّم، لشغل شعره بالمديح. ولما جاءنا بهذه الآيات البيّنات التي صوّر بها عواطف نفسه المُتعبة وأخلاق أهل زمانه.

وقد عبّر ابن الرومي عن الحياة وظواهر الوجود بأسلوب إستقرائي تحليلي يعكس تأثره بالطرائق الفلسفيّة في العصر العباسي، وكشف سعة ثقافته وصحّة تفكيره وعمق فلسفته ورؤيته.

جاء شعر ابن الرومي تعبيرًا صادقًا عن حياة الشاعر وآماله وآلامه وشخصيّته، فضلا عن ظروف مجتمعه، بلغة الإحساس المرهف، الذي جرّ لصاحبه ويلات الدهر وعقباته وفواجعه، ما نمّى لديه

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص32.
(2) انظر عبد الرحمن شكري، دراسات في الشعر العربي، مرجع سابق، ص8. وانظر حنا فاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 545. وانظر محمد عبد الغني حسن، ابن الرومي، مرجع سابق، ص 54.
(3) ابن الرومي، الديوان، ج2، مصدر سابق، ص 683.

الإبداع و جسّد نظرته الخاصة للحياة والوجود، ولأنه مرهف الإحساس استطاع صياغة مشاعره الفياضة معبّرا عنها عن طريق الشّعر، بوصفه وسيلة تفريغ للمكبوتات النّفسية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

1. ابن النديم، الفهرس، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2006م.
2. أحمد بن الحسين الجعفي المتنبي أبو الطيب، ديوان المتنبي، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1983م.
3. العباس أبو الحسن علي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسين نصار، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية،2003م.

ثانيا: المعاجم

1. ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، ط4، 2005م.
2. الفيروز أبادي، شرح حمدو طماس، بيروت: دارالمعرفة، ط2، 2005م.

ثالثا: المراجع

1. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحيقق: إحسان عباس، بيروت، 1972م.
2. أيوب نبيل أيوب، نص القارئ المختلف (2) وسيمائية الخطاب النقدي، بيروت: لبنان ناشرون، ط1، 2011م.
3. بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط5، ج2، 1977م.
4. البستاني بطرس، أدباء العرب في الأعصر العباسية، بيروت: دار مارون عبّود، 1979م.
5. الحاوي إيليا سليم، ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، 1959م.
6. حسن محمد عبد الغني، ابن الرومي، مصر: دار المعارف، 1960م.
7. شرارة عبد اللطيف، تغلب على التشاؤم وسلطان الإرادة، الموسوعة النفسية، بيروت: دار إحياء العلوم، ط5، 1996م.
8. شكري، عبد الرحمن، دراسات في الشعر العربي، مصر: الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1994م.
9. ضيف شوقي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط10، 1996م.
10. ضيف شوقي، الفن ومذاهبه، القاهرة، دار المعارف، ط5، 1980م.

11. عبد الرحمن عفيف، ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء، الرياض: دار العلوم، 1996م.
12. العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، المكتبة التجارية الكبرى، ط5، 1963م.
13. الغوصي عبد العزيز، أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1982م.
14. الفاعوري حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، بيروت: دار الجيل، ط1، 1986م.
15. القيرواني ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل- بيروت، 1981م.
16. القيرواني أبو اسحق، زهرة الآداب وثمر الألباب، بيروت: المكتبة العصرية، 2008م.
17. المعري أبو العلاء، رسالة الغفران، تقديم: حسن فاعور، بيروت: دار الكتب العلمية، ط3، 2007م.